

بسم الله الرحمن الرحيم

رياض الصالحين

شرح حديث أسماء بن زيد "أَرْسَلْتُ بَنْتَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِنَّ ابْنِي قَدْ احْتَضَرَ فَاشْهَدُنَا" ١

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلوة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فلا زلنا في حديث أبي زيد أسماء بن زيد بن حارثة مولى رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وحبه وابنه حبه -رضي الله تعالى عنهما- وذكرنا طرفاً من ترجمة أسماء -رضي الله تعالى عنه وأرضاه.

وقوله: مولى رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أي: أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قد أعتق أباً، وهو زيد بن حارثة -رضي الله عنه-، فسرى العتق إلى الولد، فصار عتيقاً، والمولى يطلق على الأعلى، وعلى الأدنى، بمعنى أن المعنق -بكسر التاء- يقال له: مولى، ويقال للمعتق العبد الذي صار حراً يقال له أيضاً: مولى، فهي من الأضداد.

يقول: وحبه وابن حبه، حيه كما يقال: خدنه مثلاً، والمقصود به أنه محبوبه، فالنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كان يحبه ويحب أباه.

قال: "أَرْسَلْتُ بَنْتَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِنَّ ابْنِي قَدْ احْتَضَرَ فَاشْهَدُنَا".

بنت النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- المشهور أنها زينب -رضي الله تعالى عنها-، أرسلت إليه -عليه الصلاة والسلام- تقول: إن ابني قد احتضر.

وبعضهم يقول: إن المقصود بذلك هي أمامة بنت بنت النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وهو الظاهر من كلام الحافظ ابن حجر -رحمه الله تعالى-، ومع أن ذلك يُشكّل عليه أن أمامة عاشت بعد النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كما هو معروف، وهي التي كان يحملها ويصلّي وهي بنية قد ارتفعت قليلاً، وهنا ذكرت الاحتضار. ويجيب الحافظ ابن حجر -رحمه الله- عن هذا بأنه قد اشتد بها المرض، فظننت أنها أنه قد نزل بها الموت، فدعت النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وهذا قد يحصل، أن الإنسان يشتد به المرض حتى يُظن أنه قد مات، ثم بعد ذلك عافها الله -عز وجل-، فعاشت مدة بعد ذلك.

وبعضهم يقول: هذا ليس في أمامة، وإنما هو في علي، غلام لبنت النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

وبعضهم يقول: هو في ولد لعثمان يقال له: عبد الله، وعثمان متزوج أيضاً ببنت النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-. وظاهر هذا الحديث أنه ذكر؛ لأنها قالت: إن ابني، ولم تقل: إن ابنتي، لكنه جاء في رواية أخرى ما ظاهره أنها بنت، بل فيه التصريح بأنها أمامة، أن أمامة بنت بنت النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قد احتضرت، فالمقصود أنها حادثة واحدة فيما يظهر، ولكن ذلك اختلف بسبب نقل الرواية، والله تعالى أعلم.

ومعنى الاحتضار: أن يكون الإنسان في حال النزع، وقد نزل به الموت، ويعاني من آلامه وسكتاته، هذا هو الاحتضار.

أما مرض الموت فقد يطول، وقد يكون شهراً، وقد يكون سنة، وقد يكون أقل وأكثر، ولكن الاحتضار هو حالة خروج الروح، وحالة معاناة الموت وشدة وسكتاته، وهذا لا يطول عادة.

فأرسل يقرئ السلام -عليه الصلاة والسلام- عليها، يسلم عليها، بلغها تسليمه -عليه الصلاة والسلام- ويقول: ((إن الله ما أخذ، والله ما أعطى)).

يعنى: أن الملك ملكه، والخلق خلقه، فما أخذ فهوأمانة أخذها صاحبها، وما أعطى أي: ما أبقى على قيد الحياة، ينزع أرواح أقوام، ويمهل آخرين، فله ما أخذ، وله ما أبقى على قيد الحياة، وله سبحانه وتعالى - ما أعطى من استبقاء آخرين، وولادة أناس أيضاً.

وهذا أصل كبير، إذا استيقنه العبد استراح، فلا يحزن حزناً يفضي به إلى الضجر والخروج عن القدر الواجب الذي ينبغي على العبد أن لا يتعداه من التسخط على ما ينزل به من الأمور المؤلمة.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم -((الصبر عند الصدمة الأولى))^(١)، وكثير من الناس يحسن القول، وقد يظن في نفسه الكثير من الصبر، ولكنه إذا وقعت المصيبة خرج عن طوره.

ولا شك أن الإنسان قد لا يعرف مقدار صبره، ومعياره الحقيقى حتى تقع المصيبة، فإذا وقعت المصيبة عند ذلك يظهر حال الإنسان من الصبر وعدمه، فلربما يبكي، ويرفع صوته بالبكاء، ويلطم وجهه، وينتف شعره، ويقول ما يسخط الرب تبارك وتعالى.

وتعرفون خبر تلك المرأة التي مر بها النبي صلى الله عليه وسلم - وهي تبكي على قبر، فأمرها النبي صلى الله عليه وسلم - بالصبر والاحتساب، فقالت: إليك عنى فإنك لم تصب بمحبيتي، ولم تعرف أنه النبي صلى الله عليه وسلم -، ثم قيل لها: إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم -، فأنت إليه فلم تجد عند بيته أو عند بابه بوابة، فقالت: إني لم أعرفك، فقال لها: ((إِنَّمَا الصَّبْرُ عَنِ الصَّدْمَةِ الْأُولَى))^(٢).

فأقول: الجزء أمر ينبغي أن يعالج في النفوس، كثير من الرجال -دعوك من النساء- لا تستطيع أن تستقبله بخبر دون الموت، لو قلت له: ابنك وقع له مكروه دون الموت لربما أغمى عليه، ولربما صدر منه ما لا يليق إطلاقاً، فمثل ذلك لا شك أنه بسبب ضعف في قلب الإنسان، ضعف في القلب، فالقلب إذا ضعف خارت قوى الإنسان، فلا يسيطر على اللسان، ولا على النظر، فيشخص البصر، ولا يسيطر على الجوارح، فتبدأ تشطح وتضرب، يضرب نفسه، وهذا شيء مشاهد، فالإنسان ينبغي أن يصبر نفسه، وأن يعود نفسه على الصبر ويتذكر هذا المعنى.

وتعرفون قصة أبي طحة، لما مات ابنه، فلما جاء لأمرأته وسألها عن هذا الابن المريض، قالت: هو أسكن ما يكون، يعني مات، لكن هو فهم أن الولد في حالة لا يأس بها وقد هدا عنه المرض والاعتلاء، وكانت قد تزينت له، وتطيبت ثم وقع عليها، ثم بعد ذلك سألته عن رجل أو عن أحد أعطاه أمانة، ثم جاء وأخذها، فما

^١- أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب الصبر عند الصدمة الأولى (٤٣٨/١)، رقم: (١٢٤٠)، ومسلم، كتاب الجنائز، باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى (٦٣٧/٢)، رقم: (٩٢٦).

^٢- أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور (٤٣٠/١)، رقم: (١٢٢٣)، ومسلم، كتاب الجنائز، باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى (٦٣٧/٢)، رقم: (٩٢٦).

موقفه؟ ثم أخبرته بأن يحتسب هذا الابن، فأتى إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- ثم أخبره بما وقع، فدعا لهما النبي -صلى الله عليه وسلم^(٣).

وهذه الأمور التي وقعت في ذلك الجيل يمكن أن تقع، وقد سمعت مرة بنفسي من أحد هؤلاء الناس يذكر صاحبًا له من المعاصرين، فيقول: فلاح وقع له كما وقع لهذا الصحابي -رضي الله عنه-، عنده مزرعة في ناحية البلد، وهو رجل من العامة، ليس بطالب علم ولا عالم.

ورزقه الله بالبنات إلا ابناً صغيراً، فمرض هذا الولد الصغير مرضًا شديداً، وأنتم تعرفون الحال التي كان عليها الآباء الأولون، لا توجد مستشفيات، ولا توجد عناية، وإذا ذهب الإنسان إلى محل قريب لربما يخرج في الصباح ولا يأتي إلا في الليل، لضعف المواصلات، وضعف الأحوال، فالولد هذا كان في شدة المرض، فلما جاء هذا الأب في المساء -في الليل- كانت هذه الأم قد أخرجت البنات إلى المزرعة، وأمرتهن بالحصاد، هي لا تزيد الحصاد، ولكنها تتهيأ لاستقبال زوجها وتتطلع إليه، فلما جاء سألهما عن الولد، فقالت: بخير، ثم تعشى، ثم ضاجعها، ثم أخبرته، قالت له: إن أعطاك أحد أمانة، ثم طلبها هل تمتتع؟ قال: لا، قالت فإن صاحب الأمانة جاء ليستردها فأعطيتها.

وهذه قضية واقعة، نعرف من وقعت له بعينه، وسألت صاحبه هل كان يعرف خبر الصحابي؟ قال: لا، ثم قال الأب قصيدة طويلة سمعتها ولم أحفظها -يذكر فيها أموراً مهمة جداً في الاعتقاد، والصبر، والتوكيل، والاستواء على العرش، وعلو الله -عز وجل- على خلقه، وكثيراً من أوصاف الكمال لله -عز وجل- في هذه القصيدة.

قوله: الله ما أعطى، وكل شيء عنده إلى أجل مسمى، وقد تستغربون أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يرد بمثل هذا الرد، ففي واقعنا المعاصر إذا أردنا أن نقيس لربما إذا قيل فلان فيه جرح، أو سقط من دراجته، اجتمعت الأسرة بقضها وقضيضها، واستدعوا القريب والبعيد، ولا يسعه أصلاً أن يت Rudd عن الحضور. ولو دُعي الأب أو الجد وفيه له: فلان ينزف، أو فلان مريض، أو فلان في وضع صعب وحرج، مباشرة يترك ما بيده ويحضر الجميع، ويجتمع الناس من قرابته ونحو ذلك.

والنبي -صلى الله عليه وسلم- أمر ابنته أن تصبر وتحتسب، وهو أرف الناس.

نقول: لا ينبغي أن نقيس الحياة التي كانت في ذلك الوقت على حياتنا اليوم، لكن هذا المعنى يدركه آباؤنا الذين عاشوا حياة تشبه حياة الجيل الأول، فقد كان الميت يموت ويدفن في النهار، وتموت المرأة وتتدفن وزوجها في السوق، بل لربما كان عند بعض أصحابه، وكانت الحياة بسيطة جداً، ولا تحتمل التأخير، ويغتنمون إذا كان ثمة جماعة قد اجتمعت للصلوة عليه، وليس هذه بالنسبة لهم قضية يتوقف عليها الدفن، فكانت حياتهم ببساطة، والموت عندهم كثير، الجدران يحصدون، بل كانوا يموتون من الحصبة وأمراض يسيرة، وكان يموت فيها أعداد كثيرة جداً من الناس، فلا يقاوم ذلك الوقت على وقتنا هذا، ففي وقتنا هذا قد

^٣ - أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب من فضائل أبي طلحة الأنصاري -رضي الله عنه-، رقم: (٢١٤٤)، رقم: (٢١٤٤).

يستغرب هذا الكلام، لكنه في وقته أمر معتاد، ألفه الناس، ولا إشكال فيه، والموت عندهم لا يستغرب إطلاقاً، وهذا شيء معروف.

قال: ((فلتصبر ولتحسب)) وهذا هو الشاهد من إيراد هذا الحديث في باب الصبر، تصبر، تحبس نفسها عن الجزع، وتحاسب الأجر عند الله -تبارك وتعالى-.

هذا، ولل الحديث بقية، أسأل الله -عز وجل- أن يلهمنا وإياكم الصبر والثبات، وأن يشرح صدورنا، وأن يعيننا وإياكم على طاعته وشكره وحسن عبادته وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه.